

## التحرير والتنوير

وقوله ( إنك أنت علام الغيوب ) علة لقوله ( تعلم ما في نفسي ) ولذلك جيء ب ( إن ) المفيدة التعليل . وقد جمع فيه أربع مؤكدات وطريقة حصر فضمير الفصل أفاد الحصر وإن وصيغة الحصر وجمع الغيوب وأداة الاستغراب .

وبعد أن تبرأ من أن يكون أمر أمته بما اختلقوه انتقل فبين أنه أمرهم بعكس ذلك حسبما أمره ﷻ تعالى فقال ( ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ) فقوله ( ما قلت لهم ) ارتقاء في الجواب فهو استئناف بمنزلة الجواب الأول وهو ( ما يكون لي أن أقول ) الخ...صرح هنا بما قاله لأن الاستفهام عن مقاله . والمعنى : ما تجاوزت فيما قلت حد التبليغ لما أمرتني به فالموصول وصلته هو مقول ( ما قلت لهم ) وهو مفرد دال على جمل فلذلك صح وقوعه منصوبا بفعل القول .

و ( أن ) مفسرة ( أمرتني ) لأن الأمر فيه معنى القول دون حروفه وجملة ( اعبدوا ﷻ ربي وربكم ) تفسيرية ل ( أمرتني ) . واختير ( أمرتني ) على ( قلت لي ) مبالغة في الأدب . ولما كان ( أمرتني ) متضمنا معنى القول كانت جملة ( اعبدوا ﷻ ربي وربكم ) هي المأمور بأن يبلغه لهم فﷻ قال له : قل لهم اعبدوا ﷻ ربي وربكم . فعلى هذا يكون ( ربي وربكم ) من مقول ﷻ تعالى لأنه أمره بأن يقول هذه العبارة ولكن لما عبر عن ذلك بفعل ( أمرتني به ) صح تفسيره بحرف ( أن ) التفسيرية فالذي قاله عيسى هو عين اللفظ الذي أمره ﷻ بأن يقول . فلا حاجة إلى ما تكلف به في الكشف على أن صاحب الانتصاف جوز وجها آخر وهو أن يكون التفسير جرى على حكاية القول المأمور به بالمعنى فيكون ﷻ تعالى قال له : قل لهم أن يعبدوا ربك وربهم . فلما حكاه عيسى قال : اعبدوا ﷻ ربي وربكم اه . وهذا التوجيه هو الشائع بين أهل العلم حتى جعلوا الآية مثالا لحكاية القول بالمعنى . وأقول : هو استعمال فصيح . قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى ( مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ) في سورة الأنعام إذا أخبرت أنك قلت لغائب أو قيل له أو أمرت أن يقال له : فلك في فصيح كلام العرب أن تحكي الألفاظ المقولة بعينها فتجيء بلفظ المخاطبة ولك أن تأتي بالمعنى في الألفاظ بذكر غائب دون مخاطبة اه . وعندني أنه ضعيف في هذه الآية .

ثم تبرأ من تبعتهم فقال ( وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ) أي كنت مشاهدا لهم ورقيبا يمنعهم من أن يقولوا مثل هذه المقالة الشنعاء .

و ( ما دمت ) ( ما ) فيه ظرفية مصدرية و ( دام ) تامة لا تطلب منصوبا و ( فيهم ) متعلق ب ( دمت ) أي بينهم وليس خبرا ل ( دام ) على الأظهر لأن ( دام ) التي تطلب خبرا هي التي

يراد منها الاستمرار على فعل معين هو مضمون خبرها أما هي هنا فهي بمعنى البقاء أي ما بقيت فيهم أي ما بقيت في الدنيا .

ولذلك فرع عنه قوله ( فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ) أي فلما قضيت يوفاتي لأن مباشر الوفاة هو ملك الموت . والوفاة الموت وتوفاه □ أماته أي قضى به وتوفاه ملك الموت قبض روحه وأماته .

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى ( إني متوفيك ) في سورة آل عمران .

والمعنى : أنك لما توفيتني قد صارت الوفاة حائلا بيني وبينهم فلم يكن لي أن أنكر عليهم ضلالهم ولذلك قال ( كنت أنت الرقيب عليهم ) فجاء بضمير الفصل الدال على القصر أي كنت أنت الرقيب لا أنا إذ لم يبق بيني وبين الدنيا اتصال . والمعنى أنك تعلم أمرهم وترسل إليهم من يهديهم متى شئت . وقد أرسل إليهم محمدا صلى □ عليه وسلم وهداهم بكل وجوه الاهتداء . وأقصى وجوه الاهتداء إبلاغهم ما سيكون في شأنهم يوم القيامة .

وقوله ( وأنت على كل شيء شهيد ) تذييل والواو اعتراضية إذ ليس معطوفا على ما تقدم لئلا يكون في حكم جواب ( لما ) .

وقوله ( إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ) فوض أمرهم إلى □ فهو أعلم بما يجازيهم به لأن المقام مقام إمساك عن إبداء رغبة لشدة هول ذلك اليوم وغاية ما عرض به عيسى أنه جوز المغفرة لهم رحمة منه بهم .

وقوله ( فإنك أنت العزيز الحكيم ) ذكر العزيز كناية عن كونه يغفر عن مقدرة وذكر الحكيم لمناسبته للتفويض أي المحكم للأمور العالم بما يليق بهم .